Social Lesions in Al-Mamluki Era: Al-Hashisha Poetry as A model

Dr. MAYYADAH ABDULQADER IMRAN
UNIVERSITY OF BAGHDAD - COLLEGE OF ARTS
yyrr2018@yahoo.com

DOI: 10.31973/aj.v1i139.1401

Abstract:

The research dealt with a widespread phenomenon in the later eras, especially in Al – Mamluki era. Which is Marijuana (Al –Hashisha) as a result of what society had faced of oppressive circumstances. Which resulted in a social scourge that people misused them, particularly among popular peoples (The poor). Where they had them more to make them forget their miserable reality of life. So, poets of that era wanted to express their anger and revulsion from this scourge through their poems. So, they adopted two directions: The first group supported it, because it makes the drinker feels with pleasure in the soul and removes it from his painful reality. The second collection had rejected it because it brings diseases, fatigue and may lead his life to death

Keywords: Lesions, Al – Mamluki Era, Poetry, Al –Hashisha

الآفات الاجتماعية في العصر المملوكي (شعر الحشيشة انموذجًا)

د. ميادة عبد القادر عمران
كلية الآداب/ جامعة بغداد
yyrr2018@yahoo.com

(مُلَخَّصُ البَحث)

تناول البحث ظاهرة منتشرة في العصور المتأخرة، ولاسيما في العصر المملوكي هي (الحشيشة) نتيجة لما واجهه المجتمع من ظروف قاهرة، نتجتْ عنه آفة اجتماعية أساء الناس استعمالها، ولاسيما في الأوساط الشعبية (الفقراء) وأكثروا من تعاطيها لتُنسيهم واقعهم المزري، لذا أراد شعراء العصر التعبير عن سخطهم ونقمهم من هذه الآفة خلال أشعارهم، فاتجهوا اتجاهين: الأوّل المؤيد لها لما تبعثه في نفس شاربها من نشوة ومتعة وتخرجه من واقعه المؤلم، والآخر الرافض لها لما تجلبه من أمراض وتعب وربما يؤدي بحياته إلى الموت.

الكلمات المفتاحية: الآفات، العصر المملوكي، الشعر، الحشيشة

طبيعة الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي:

عانى المجتمع العباسي في العصر المملوكي بعد سقوط بغداد سنة (٦٥٦هـ) بزوال الدولة العباسية حتى بواكير عهد النهضة الحديثة التي رافقت دخول نابليون مصر، تحت ظل الحكم المملوكي (المماليك) الذي استمر زهاء ثلاثة قرون من ويلات وحروب ونكبات وكوارث، وبؤس وفقر وجوع وضيق وغلاء معيشة، وجهل وظلم وتعسف بأبناء الرعية، بعد تقسيمهم على طبقات مختلفة من الأدنى إلى الأعلى، وهذا ما أشار إليه المقريزي في قوله: ((وهي طبقة أهل الدولة، أصحاب القرار في سلمها وحربها وفي إدارة شؤونها، فأهل اليسار من التجار، وهم أصحاب البرَّ، ويلحق بهم أصحاب المعايش، وهم السوقه، ثم الفلح وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، ثم الفقراء، وهم جلُّ الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، ثم أتبعون بأرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن، والقسم السابع ذوو الحاجة وهم السؤال الذي يتكففون الناس ويعيشون منهم)) (تقي الدين، دون تاريخ: ٧٣) (Taqi Al-Din, without date: 73) (المغربي، دون تاريخ: ٢٠-٢٦) (Almaghribi , without date: 20-26)، فأحس الناس ((بالفزع والقلق وعدم الاستقرار، حتى وصفهم المقريزي ما بين ميت ومشتهى الموت)) (تقي الدين، دون تاريخ: ٧٣-٧٦) (Taqi Al-Din, without date: 73-76).

فساءت الأوضاع الاجتماعية، واضطربت أحوال البلاد، ولاسيما أن هذا العصر جسد شخصين حكموا البلاد:

الأولى: التي أخذت تدافع عن الدين الإسلامي، وعن ابناء الشعب، وتساند الفقراء والمساكين، ومنهم الملك (بيبرس) الذي قضى على أكثر من آفة اجتماعية في تلك الحقبة منها (الحشيشة) إذ أمر بمنع تعاطيها، وتعاطي المخدرات والمسكرات الأخرى، وإقامة الحد عليه وإحراق دور اللهو، كما أشار (ابن دانيال الموصلي) في قوله (الصفدي، ١٩٧٩: ٧٨) (Al-Safadi, 1979: 78):

لقد كان حَدُّ السكر من قبل صَلْبه خفيف الأذى إذ كانَ في شَرْعنا جلدا

أما الثانية: فهم الذين ظلموا أبناء الشعب واستبدوا بهم، وأنزلوا فيهم أشد العقوبات، كما في قول (ابن شهبة) مشتكياً من أمثال هؤلاء (ابن تغري بردي، دون تاريخ: ١٢٦/٨) (Ibn Tghri Bardi, without history: 8/126):

رمتنا صروف الدهر حقًا بسبعة فما أخذ منا من السبع سالمُ
غلاءُ، وغازانُ، وغزو، وغارة وعذر، واغبان، وغم، ملازمُ

ونجد الشاعر (البهاء زهير) يُعبر عن سخطه ونقمهِ من الرؤساء، فيصور الظلم الذي أحاط بالبلاد في قوله (البهاء زهير، دون تاريخ: ٢٨٨) (Al-Baha Zuhair, without history: 288):

دَولـــــةُ كـــــمْ قـــــد ســـــألنا ربّنـــــا التعـــــويض عنهـــــا
وفرحنـــــا حـــــين زالـــــتْ جاءنـــــا أنحـــــس مِنهـــــا

فصار الشعراء حاملي رسائل، ومترجمي واقعهم المرير، ومعبرين عن سخطهم من الرؤوساء، بواقعية التصوير لحال المجتمع الذي أصبح مضطرباً ومندفعاً بين أهوائه وانغماساته في اللهو والطرب، وبين إظهاره للزهد والتمادي في الدروشة والتصوف، أي لم يكن هناك حد وسط يقضي إلى بناء مجتمع سليم، وإنما أدى إلى تحليل خلقي وأخلاقي، مما نتج عنها الأمراض والأوبئة المتفاقمة التي عمت البلاد، وتركت آثاراً اجتماعية في الناس، فتحولت إلى آفاق خطيرة تؤثر على إدراك أبناء الشعب ومستقبله، وهي آفة تناول (الحشيشة) التي انتشرت بشكل ملحوظ في هذه الحقبة، فدمرت أبناء المجتمع، فأصبح أبنائه لا يدركون شيئاً، فقد هو الخروج من واقعهم المرير بأي وسيلة يلجئون إليها.

الحشيشة لغة واصطلاحًا:

لُغة: من حش الشيءُ – حَشًّا: جف ويبس، ويُقال: حَشَّ الحنين: يبس في البطن، وحَشَّتْ اليدُ ونحوها: يبست وشلتْ. و(أحشَ) المكان: نبت فيه الحشيش. وكثُرَ حشيشهُ. والشيءُ: حش. ويُقال أحَشَ الكلأُ وآن وقتُ حَشَّه وفلانًا سَاعده على قطع الحشيش وجمعه، أو على ايقاد النار – والله يده: أيبسها وأشلّهَا. و(الحَشاشُ): قاطع الحشيش. وجامعه. و – بائعه – و – مدمن تدخين الحشيش – و (الحشاشون): فرقة من الاسماعيلية الشيعية، أسَّسها (حسن بن صباح). و(الحشيش): ما يبس من الكلأ فأمكن أن يُحشّ وأن يُجمع واحدته: حشيشة، وجمعها: حشائش. و – نبات مُخَدَّ. و (الحشيشة): الطاقة من الحشيش، وحشيشةُ الدينار: نبات معتمر من فصيلة القنيّات يُنبت بالشرق، ويزرع في أوربا حيث تستعمل مخاريط أزهاره في تعطير الجعة (مصطفى والزيات، دون تاريخ، مادة حش) (Mustafa and Al-Zayat, without date, stuffing).

أما اصطلاحًا: فهي نوع من الخمرة والمسكرات والمخدرات المتكوّنة من شجيرات القنب الهندي والتي يتم زراعتها في المناطق الاستوائية، والمناطق المعتدلة، والماريجوانا هي أوراق وأزهار القنب الجافة، عند تناولها، تشعر صاحبها بالمتعة والهلوسة والفرح، وتذهب بعقلهِ، ويحس بالكسل والفتور.

والحشيش: هي السائل المخفف من المادة الضمغية والحشيش أكثر المخدرات انتشارًا في العالم نظرًا لرخص ثمنه، وسهولة تعاطيه، فهو لا يلزمه أدوات معقدة مثل سرنجات الأبر،

وأوراق نبات القنب تحتوي موادًا كيميائية كرباعي هيدروكانابيتول، وكميات صغيرة من مادة تشبه الاتروبين تسبب جفاف الحلق، ومادة تشبه الاستيل كولين تسبب تأثير دخان الحشيش المهيج.

والحشيش من المواد المهلوسة بجرعات كبيرة يؤدي إلى نوع من الهلوسة، وتترك تأثيراً كبيراً على الجهاز العصبي المركزي، نظراً لسرعة وصول المادة الفعالة من الرئة إلى الدم، ومنه إلى أنحاء المخ (https:\\ar–m.Wikipedia–org.wiki).

النشأة والظهور:

عُرفتْ الحشيشة منذ أقدم عصور التأريخ، وهي مواد تغير حالة العقل أو الإدراك أو الحس، فحاول الإنسان بوسائله البسيطة اكتشاف عدد من العقاقير المستخلصة من النباتات والأعشاب، ليشفي بها أمراضه، ويتخلص من بعض متاعبه، فكانت المخدرات التي عرفها الإنسان تستعمل دواء لعلاج الكثير من الأمراض وللتسلية وتلبية لرغباته الخاصة. ولقد عرف الصينيون الصفات المنعشة للنبات أنثي القنب في العصر الألفي الثالث قبل الميلاد، وقد وصف العقار المخدر في (الأقر باذيانية الصينية)، وهذا الاستعمال للعلاج، انتقل من الصين إلى مصر والهند واليونان وافريقيا والعالم العربي.

وبدأ استعماله كمخدر في القرن العاشر قبل الميلاد، وانتشر تدريجياً على درجات متفاوتة في دول العالم، فلقد عرفه الفرس واكتشفوا آثاره التخديرية، كما عرفه الكهنة، واستعملوا لتأدية الطقوس الدينية، ويعتقد أن أول من وصف القنب وشرحه بالرسم الفيلسوف اليوناني (ديوسكوريدس) في القرن الأوّل الميلادي، وعنه أخذ الأطباء العرب والفرس وصف هذا النبات، وقد أشار (ابن البيطار) في القرن الثالث عشر الميلادي إلى زراعة نبات القنب في مصر، والذي أطلق عليه اسم (الحشيش) نسبة إلى العشب، بينما يرجع بعض الباحثين إلى أصل اللفظة (حشيش) هي (شيش) العبرية، وتعني الفرح، وتشعر صاحبها بالنشوة والتسلية واللهو والسرور، وقد وردت أول إشارة عن (الخشخاش) في لوحة صغيرة من الطمي الأبيض، عُثِرَ عليها في جنوب غرب مدينة بغداد في منطقة كانت تعدُّ المركز الروحي للسومريين، وقد استعمل هذا النبات في الطقوس الدينية. وهناك نوع آخر من الحشيشة هو (الأفيون) عرفهُ العرب من اليونان من خلال التجارة في القرن الثامن بعد الميلاد.

ويأتي نبات (الأفيون) مادة علاجية، ويعتقد منشأ (الخشخاش) الأصلي كان في منطقة شرق بحر المتوسط وجنوب شرق البحر الأبيض، وجنوب آسيا قبل نحو (٥٠٠٠) عام. ومن هنا انتقل إلى السومريين، ومن بعدهم البابليين فالفرس، ومن ثم إلى المصريين القدماء والأغريق، وقد استعمل لعلاج بعض الأمراض مثل وقف حالات الاسهال، ولكن اساءوا طريقة استعماله في تخفيف الآلام الجنود المصابين في الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١–

١٨٦٥م) فأداموا على تعاطي المورفين عن طريق المورفين عن طريق الحقن تحت الجلد (https:\\m. facebook. Com. Posts).

أما الظهور: ذكر الاستاذ (أحمد صادق) من خلال كتابه (الأدب العالمي في مصر في العصر المملوكي) أنَّ الحشيشة، ظهرت في مصر في أوائل القرن السابع، واستعملته مادة علاجية طبية، ويذكر شيئاً في غاية الأهمية في قوله: ((وعندما أنبث فقراء الصوفية الأجانب في أرجاء البلاد المصرية انتقلت مادة الحشيش المخدرة إلى مصر، وبانتشار هذه الآفة بين الصوفية عرفها الشعب المصري)) (الجمال، ١٩٦٦: ٦٢) (Al-Jamal, 1966: 62)، وذكر الدكتور بكري الشيخ أحمد أمين من أنها ((نسبتْ إلى رجل يدعى حيدرة المتوفى سنة (٦١٨هـ- ١٢٢١م) وأنها سميت بحشيشة الفقراء)) (الشيخ أمين، ١٩٧٢: ٢٨٠) (Alsheikh Amin, 1972: 280).

وذكر د. سامي يوسف أبو زيد صاحب كتاب (أدب الدول المتتابعة الزنكية والأيوبية والمماليك) إنها ((تنسب إلى رجل يدعى الشيخ حيدر (٦١٨هـ). وكان يقيم في خراسان، وقد أوصى جماعته بصيانة هذا النبات الذي يدخل النشاط والسرور في أنفسهم، وأخذ طائفة الفقراء الأيمان ألا بعلم به أحد من عوام الناس وطلب منهم عدم إخفائه عن كل متصوف، وقد سمي هذا النبات حشيش الفقراء، وأصبحت داء العصر، فقد ادخلتها طائفة القادرية إلى سائر الطوائف، وقد أمر السلطان (بيبرس) بهدم دور الخمر والحشيش معًا، وأقام الحد على ما يتعاطونهما)) (أبو زيد، ٢٠١٢: ٣١) (Abu Zaid, 2012: 31) (ضيف، دون تاريخ: ٦٥) (Tyf, without date: 65).

ويبدو في هذا الأمر الكثير من الصحة، إذ عثرنا على شعر قيل في الحشيشة قبل سنة (٦١٨هـ) بكثير، والأمر الذي يشفع في تصديق نسبة مكتشف الحشيشة القادم بها لبلاد العرب، وهو ذكر الشعراء اسم مكتشفها خلال أشعارهم، كما في قول ابن الأعمى (المقريزي، ١٢٧٠هـ: ٣/٢٠٥) (Maqrizi, 1270 A.H: 3/205):

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر معنبرة خضراء مثل الزبرجد
يعاطيكها ظبي من الترك أغيد يميس على غصن من البان أملد

وذكرها محمد بن برسام من شعراء الدولة العثمانية قائلاً (التاوتنجي، ١٩٩٣: ٢٩١-٢٩٢) (Altawtnji, 1993: 291-292):

فحشيشة الأفراح هي عندنا للعاشقين ببسطها للأنفس
وإذا هممت بصيد ظبي نافر فاجهد بأن يرعى حشيش القنبس
واشكر عصابة حيدر إذ أظهروا لذوي الخلاعة مذهب المتخمس

أما اسباب ظهورها فيمكن إجمالها بالنقاط الآتية:

١- ضعف الوازع الديني، مما أدى إلى ظهور تيارات ومذاهب، وانتشار الصوفية، مما اختلط على ابناء الشعب الحلال والحرام.

٢- كثرت الشكوى من استبداد المماليك وظلمهم لأبناء الرعية، بتقسيمهم على طبقات مختلفة، وبُعد السلاطين عن أحوال البلاد، وتفاقم حالة الحرب الطويلة التي أثرت تأثيراً كبيراً على نفسية أبناء الشعب.

٣- عاش أبناء المجتمع في عصر متناقضات، واضطراب اختلطت فيه العادات الحسنة بالسيئة، مما أدى إلى انتشار الظلم والفقر والجوع والأمراض والجهل بين أبناء الشعب ولاسيما الأوساط الشعبية (الفقراء).

٤- لجوء أبناء المجتمع (الفقراء منهم) إلى تناول الحشيشة للخروج من واقعهم المزري المؤلم، وتناسيهم الهموم والحزن والأسى الذي لحق بهم من جراء أحداث الزمن، وتبعث في نفوسهم النشوة والمتعة واللهو لبضع دقائق.

٥- كثرة الأديرة وكروم العنب، وانتشار مجالس الغناء والطرب والجواري الإفرنجيات، وكانت تغص بهن دور النخاسة، ومن ثم كثرت بيوت الفساد، وأحياناً التساهل في ارتكاب الأعمال المخلة بالآداب.

كل هذه الأسباب والعوامل أدتْ إلى اتخاذ الشعراء، تجاهين من تناول الحشيشة:

الأوّل: مدحها وذكر صفاتها وما تبعثه في أخذها من نشوة وسكر، والدعوة إلى تعاطيها.

الثاني: ذمها وبيان مساؤها والدعوة إلى نبذها والسخرية منها.

من الشعراء الذين دعوا إلى تعاطيها (أحمد بن يوسف) وقد أتلفه أكل الحشيش، وهو يعترض على تحريمها ومنعها في قوله (الكتبي، دون تاريخ: ٢٣-٣٦) (Al-Ketbi, without date: 23-36):

في خمار الحشيش معنى مرامي يا أهيل العقول والإفهام
حرموها من غير عقل ونقل وحرام تحريم غير الحرام

نلاحظ من الأبيات أعلاه، استعمال الشاعر الاشتقاقي الجناسي في قوله: (حرموها، حرام، تحريم، الحرام) لتوكيد المعنى، ورفضه على تحريمها واصرارهِ على تناولها. وتوظيفه لفظة (أهيل) للتصغير من شأن العقول والإفهام، فأحسن وأجاد.

أما ابن الصائغ فيصور الفقير الذي يريد أن يخرج من واقعه البائس بالأمير بمجرد أكلهِ الحشيشة بقيمة درهم واحد، وأن هذا الاحساس بالنشوة واللهو، سيزول بمجرد الإفاق من أثر الحشيشة، فيعود الفقير ضعيفاً، وكأنَّ شيئًا لم يكن في قوله (المقريزي، ١٢٧٠هـ: ٢/٢٥-٢٦) (Maqrizi, 1270 A.H: 2/25-26):

قُمْ عاطني خضراء كافورية قامت مقام سلافة الصهباء

يغـــدو الفقيـــر إذا تنـــاول درهمـــا منهـــا لـــه تيـــه علـــى الأمـــراء
وتـــراه مـــن أقـــوى الـــورى فـــإذا خـــلا منهـــا عـــددناه مـــن الضـــعفاء

أراد الشاعر إيصال أو نقل ما يعانيه الفقير في العصر المملوكي، إذ ادخله في حلم امتلاكه درهمًا، واحساسهِ بالفرحة والسرور ولو لوقتٍ قصير حتى يستفيق من حلمه ويرجع فقيرًا، فأحسن في استعاله الصورة اللونية الذوقية في قوله (خضراء كافورية، تناول درهمًا، سلافة الصهباء).

ومنهم من فضل الحشيشة على الخمرة، كما في قول الشاعر الأسعردي (الكتبي، ١٩٧٣: ٢/١٦١-١٦٢) (Al-Ketbi, 1973: 2/161-162):

لـــك الخيـــر لا تســـمع كـــلام المفنـــد ودونـــك فـــي فتيـــاك غيـــر مقلـــد
ســـألت عـــن الخضـــراء والخمـــر فاســـتمع مقالـــــة ذي رأي مصـــيب مســـــدد
وحقـــك مـــا بـــالخمر بعـــض صـــفاتها أتشـــرب جهـــراً فـــي ربـــاط ومســـجد
عليـــك بهـــا خضـــراء غيـــر مبـــالغ بـــأبيض ورق أو بأســـمر عســـجد
ولكـــن علـــى رغـــم المـــدام هديـــة تنـــزه عـــن بيـــع بغيـــر التزهـــد
رياضـــية يحكـــي الجنـــان اخضـــرارها وخمـــــرهم كالمـــــارج المتوقـــــد

قدم الشاعر لوحة فنية ممزوجة بالصورة اللونية والذوقية والسمعية، أراد ايصال الفكرة للمتلقي من خلال قوله (سألت عن الخضراء والخمر فاستمع، أتشرب جهرًا في رباط، عليك خضراء غير مبالغ، بأبيض ورق، يحكي الجنان اخضرارها).

فضلاً عن التشخيص والاستعارة التي أبرزت المعنى في تفضيل الحشيشة على الخمرة، ويعمد (الشاب الظريف) إلى ذكر أكثر من لون من بيته، ليُبيّن مدى تأثيرها على صاحبها في قوله (ابن عفيف الدين، ١٩٨٥: ١٠١) (Ibn Afif Al-Din, 1985: 101):

صـفراء فـي وجهـة خضـراء فـي فمـهِ حمـراء فـي عينـه سـوداء فـي كبـده

نلاحظ جمالية الصورة الفنية، إذ مزج الشاعر الصورة اللونية والذوقية في قوله (صفراء في وجهه في فمه، حمراء في عينه سوداء في كبده) وأراد من خلالها بيان مضار الحشيشة، وما تسببهُ لمتناولها من مرض واعياء وشحوب الوجه واصفراره وخضرة في فمهِ، حمرة في عينه، وسوداء في كبده، فأحسن وأجاد في ذلك.

ويذكر ابن دانيال الأصفرار وشحوب الوجه، والانسطال اللذين ينتجان من تعاطي الحشيش في قوله (الصفدي، ١٩٧٩: ٢٢٨-٢٢٩) (Al-Safadi, 1979: 228-229):

حبّـــي مـــا عابـــهُ أصـــفرارُ كـــلا ولا شـــانهُ انســـطالُ
ومـــا ارتعـــى الحشـــيش إلا لتعلمـــوا أنّـــه غـــزالُ

لعبت الصورة اللونية في ابراز المعنى، دورًا كبيرًا، واعانت الشاعر في ايصال الفكرة إلى متلقيه من خلال اللون (أصفرار) الذي يدل على الشحوب والمرض.

ويوضح ابن الوردي أن انتشار الحشيشة، كانت بين مجتمع النساء في قوله (أبو حفص، دون تاريخ: ٤١٣-٤٢٣) (Abu Hafs, undated: 413-323) (ابن تغري بردي، دون تاريخ: ١٠/٢٤٠) (Ibn Tghri Bardi, without history: 10/240):

مليحـــــــــة مســـــــــطولة إن لمتُهـــــا فيمـــــا جـــــرى
تقـــــول كـــــل ظبيـــــةٍ ترعـــــى الحشـــــيش الأخضـــــرا

وقول ناصر الدين بن النقيب، عن الحشيشة موضحًا منع تناولها بعد إصدار الظاهر (بيبرس) قانون معاقبة شاربها (الكتبي، ١٩٧٣: ٢/١١٥-١١٦) (Al-Ketbi, 1973: 2/115-116):

منـع الظـاهر الحشـيش مـع الخمـر فـولى إبلـيس مـن مصـر يسـعى
قـــال: مـــالي وللمقـــام بـــأرض لـــم أمتـــع فيهـــا بمـــاء ومرعـــى

والثاني: الذي ذمها وسخر من تعاطيها، وذكر ما ينجم عنها من مساوئ كثيرة تؤدي بحياة المدمن، كما في قول الشاب الظريف (ابن عفيف الدين، ١٩٨٥: ١٣٣-١٣٤) (Ibn Afif Al-Din, 1985: 133-134):

هـــذا الفقيـــر الـــذي تـــراه كـــالفرخ ملقـــى بغيـــر ريـــش
قـــد قتلتـــه الحشـــيش ســـكرا والقتـــل مـــن عـــادة الحشـــيش

أراد الشاعر توصيل المعنى لمتلقيه عبر قناة الحواس البصرية والتي اعانته في رسم الصورة الفنية. وبعدها وضح أعراض المرض والإعياء عند آكلها في قوله (ابن عفيف الدين، ١٩٨٥: ١٠١) (Ibn Afif Al-Din, 1985: 101):

مـــا للحشيشـــة فضـــل عنـــد آكلهـــا لكنـــه غيـــر مصـــروف إلـــى رشـــدهِ
مليحـــــــــة مســـــــــطولة إنَّ لمتُهـــــا فيمـــــا جـــــرى
تقـــــول كـــــلُّ ظبيـــــةٍ ترعـــــى الحشـــــيش الأخضـــــرا

نشاهد جمالية التوظيف اللوني من خلال الأبيات الشعرية، التي أراد الشاعر السخرية من متناولها بأن تجعلهُ مسطولاً مع غياب الذهن، فجعل اللون الأخضر لون العشب الذي تأكله الظبية، فإن الاخضرار يعطيه نوع من الحياة والنشوة واللهو.

ويستهزأ ابراهيم المعماري بمن يشتغل بها، بعد أن حلَّ الطاعون والمرض في البلاد في قوله (أبو حفص، دون تاريخ: ٤١٣-٤٧٣) (Abu Hafs, undated: 413-373) (ابن تغري بردي، دون تاريخ: ١٠/٢٤٠) (Ibn Tghri Bardi, without history: 10/240):

قلـــت لمـــن بالحشـــيش مشـــتغل ويحـــك مـــا تخشـــى هـــذه الكتبـــه
فالنـــاس مـــاتوا بكبـــة ظهـــرت فقـــال إنـــي أعـــيش بالكبـــه

وقد ظهرت إلى جانب مادة الحشيشة، مادة (الأفيون) فكان الفقراء عامة الشعب يقبلون عليها ولاقت الذم نفسه الذي لاقته الحشيشة، كما في قول ابن النحاس الحلبي (ابن النحاس، ١٣١٣هـ: ٦٨) (Ibn Alnahas, 1313 AH: 68):

مـــن يـــدخل الأفيـــون بيـــت لهاتـــه فليلـــق بـــين يديـــه نقـــد حياتـــه
وإذا ســـمعتم بـــأمرئ شـــرب الـــردى عـــزوه بعـــد حياتـــه بمماتـــه
أو قيـــل: ملتـــه الصـــحاب وملهـــم لا تعـــذلوه فـــذاك مـــن عاداتـــه
مـــا شـــانه وحشـــاه يـــؤدي أرقمـــا لا يســـتفيق الـــدهر مـــن وثباتـــه

أتى الشاعر بصورة ممزوجة، معبرة عن مضار مادة (الأفيون)، عَبر الحواس الذوقية والسمعية واللمسية في قوله: (من يدخل الأفيون بيت لهاته، فليلق بين يديه، وإذا سمعتم بأمرئ شرب الردى) التي أعانت الشاعر على إيصال المعنى لمتلقيه.

- اللغة والأسلوب: نلاحظ من الأبيات الشعرية لشعراء العصر المملوكي، أن لغتهم وألفاظهم ميالة إلى العامية والسبب واضح هو انتشار تعاطي الحشيشة في الأوساط الشعبية بين الفقراء، وتفتقر إلى المستوى الجيد، إذ جاءت لغتهم بسيطة وسهلة وخالية من التعقيد، ومعظم قصائدهم جاءت على شكل مقطوعات صغيرة، وهناك سبب آخر هو ضعف الثقافة اللغوية لدى شعراء المماليك، ولاسيما أنهم يخاطبون الطبقة العامة. وميلهم إلى التراكيب الشعبية ذات الاسلوب المرن والسهل والواضح. لذا جاء الشعر متفاوتاً بين القوة والضعف من حيث جودة الأداء الفني (شاكر، دون تاريخ: ١٢٨) (Shaker, undated: 128) (رشيد، دون تاريخ: ١٥-١٧) (Rasheed undated: 15-17).

وارتبطت اشعار الحشيشة بموضوعات عند شعراء العصر المملوكي، منها السخرية، كما في قول الشاب الظريف في معرض استهزائه بالفقراء الذين يتناولونها (ابن عفيف الدين، ١٩٨٥: ١٠١) (Ibn Afif Al-Din, 1985: 101):

مـــا للحشيشـــة فضـــل عنـــد آكلهـــا لكنـــه غيـــر مصـــروف إلـــى رشـــده
صـــفراء فـــي وجهـــه خضـــراء فـــي حمـــراء فـــي عينـــه ســـوداء فـــي كبـــده

نلاحظ سهولة اللفظ، وعدم التكلف والتعقيد في التراكيب.

ومن ثم يسخر من شاربها وشبهه كالفرخ الملقى على الأرض منتوفاً الريش مقتولاً من السكر في قوله (ابن عفيف الدين، ١٩٨٥: ١٣٣-١٣٤) (Ibn Afif Al-Din, 1985: 133-134):

هـــــذا الفقيـــــر الـــــذي تـــــراه كـــــالفرخ ملقـــــى بغيـــــر ريـــــش
قـــــد قتلتـــــه الحشـــــيشُ سُـــــكْرًا والقتـــــلُ مِـــــنْ عـــــادةِ الحشـــــيش

لجأ الشاعر إلى استعمال إحدى وسائل التشكيل الصورة، وهو التشبيه الذي أعان الشاعر على إبراز الصورة الفنية، فضلاً عن ذلك تتجلى براعة التوظيف اللوني في أحسن صورة في قوله (صفراء في وجهه خضراء) يعني ذلك مما ينتجه تناول الحشيش من اصفرار الوجه وشحوبة مما يتولد المرض، ومن ثم احمرار العين وسوادها قد يؤدي إلى الاعياء والتعب ثم الموت. وأحسن الشاعر الأسعردي في توظيفه للألوان ولاسيما الأخضر والأبيض، اللذان يبعثان الحياة والسرور والفرح، فأضفى على الأبيات نوع من الحركة والتجدد والحيوية والنشوة والمتعة عند شاربها في قوله (الكتبي، ١٩٧٣: ٢/١٦١-١٦٢)(Al-Ketbi, 1973: 2/161-162):

لـــك الخيـــر لا تســـمع كـــلام المقتـــد ودونـــك فـــي فتيـــاك غيـــر مقلّـــد
وحقـــك مـــا بـــالخمرُ بعـــض صـــفاتها أتشـــرب جهـــراً فـــي ربـــاط ومســـجد
عليـــك بهـــا خضـــراء غيـــر مبـــالغ بـــأبيض ورق أوز بأســـمر عســـجد
ولكـــن علـــى رغـــم المـــدام هديـــة تنـــزه عـــن بيـــع بغيـــر التزهـــد
رياضـــية يحكـــي الجنـــان اخضـــرارها وخمـــــرهم كالمـــــارج المتوقـــــد

يتحدث الشاعر عن تفضيله الحشيشة على الخمرة، وكيف يحس شاربها بالنشوة والمتعة، وبحالة الجنان واخضرارها فيطير بذهنه بأجواء الجنة وجمالها، متناسياً ولو بعض الوقت الهم والحزن والأسى من واقعه المزري.

فالموضوعات التي نظمها معظم شعراء العصر المملوكي تقليدية، هي محاكاة للقديم، وبشتى الأغراض، وبلغة بسيطة وسهلة غير معقدة قريبة من عقول وافهام الأوساط الشعبية، عاكسة حالة المجتمع وما يعانيه من ظلم وتعسف وضيق وغلاء معيشة واضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية، لذا وجدوا الشعراء خلال الشعر متنفساً يخرجهم من حالة الأسى والهم، فأصبح الشعر مرآة عاكسة تصور بواقعية حالة المعاناة، والاضطرابات التي يعيشها أبناء المجتمع في العصر المملوكي. فضلاً عن ميل الشعراء إلى نظم المقطوعات القصيرة ذات المغزى، فليس لديهم الوقت للإطالة، وإنما للتعبير عن واقعهم المرير الذي لا يسمح لديهم الوقوف بنظم الأبيات الطويلة.

الخاتمة: توصل البحث إلى نتائج هي:

١- مادة الحشيشة مفيدة وذات علاج طبي لو استعملت بالطريقة الصحيحة، إذ أن معظم العقاقير والأدوية تحتوي على مادة مخدرة ومهدئة منها أدوية المفاصل والأمراض الأخرى، ولكن سوء استعمالها في العصر المملوكي، جعلتْ منها آفة اجتماعية انتشرت نتيجة لظروف قاهرة عزفت

ابناء المجتمع من تناولها، وأصبحت ظاهرة منتشرة ويرغب بها معظم الناس (الفقراء) للخروج من واقعهم المرير، وأثرت الحروب المستمرة على نفسية أبناء الشعب.

٢- اضطراب القيم والشكوى من ظلم المماليك أدى إلى ميل عامة الناس إلى تناولها.

٣- ارتبطت موضوعات الحشيشة بالسخرية من الواقع والفكاهة والمدح، فهي أكثر تقليدية.

٤- اللغة التي نظم بها شعراء العصر المملوكي كانت مرنة خالية من التعقيد تعكس واقع الحال وقريبة من افهام وعقول الفقراء، وأن بعضها أصابها اللحن والفتور، والضعف أي أنها متفاوتة يجز التهايش القوة والضعف.

٥- كثرة مجالس الطرب واللهو، ودور النخاسة، وبيوت الفساد، مما أدى إلى انتشار آفة (الحشيشة) بين الأوسط الشعبية (الفقراء) لرخص ثمنها، وتخلصهم لبضع الوقت من واقعهم المزري المؤلم.

المصادر والمراجع:

١. ابن النحاس (١٣١٣هـ): الديوان، المطبعة الأنسية، بيروت.
٢. ابن تغري بردي، جمال الدين (دون تاريخ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.
٣. ابن عفيف الدين، شمس الدين محمد (٦٠٦هـ-٦٨٨هـ)، (١٩٨٥): ديوان الشاب الظريف، تحقيق: شاكر هادي شكر، مكتبة النهضة العربية، عالم الكتب، الطبعة الأولى.
٤. أبو حفص، عمر بن مظفر بن عمر (ت٧٤٩هـ)، (دون تاريخ): ديوان ابن الوردي، دون مكان طبع.
٥. أبو زيد، د. سامي يوسف (٢٠١٢): أدب الدول المتتابعة الزنكية والأيوبية والمماليك، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة الأولى.
٦. البهاء زهير، (دون تاريخ): الديوان، تحقيق، د. محمد ابو الفضل ابراهيم، محمد طاهر الجيلاوي، دار المعارف، الطبعة الأولى.
٧. التاوتنجي، د. محمد (١٩٩٣): الاتجاهات الشعرية في بلاد الشام في العهد العثماني، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
٨. تقي الدين، أحمد بن علي، (دون تاريخ): إغاثة الأمة بكشف الغمة، إصدار دار ابن الوليد.
٩. الجمال، أحمد صادق (١٩٦٦): الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
١٠. حشيش – ويكيبديا/ الموسوعة الحرة. https:\\ar – m. Wikipedia- org. wiki.
١١. الحنفي، ابن اياس أبو البركات محمد بن أحمد المصري (ت٩٣٠هـ)، (١٣١١هـ): بدائع الزهور في وقائع الدهور، بولاق، مصر.
١٢. رشيد، د. ناظم (دون تاريخ): في أدب العصور المتأخرة، منشورات مكتبة بسام، الموصل- العراق.
١٣. شاكر، نيفين محمد (دون تاريخ): السخرية في الشعر العصر المملوكي (٦٤٨- ٧٨٤هـ)، رسالة ماجستير.
١٤. الشيخ أمين، د. بكري (١٩٧٢): مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، دار الشروق، الطبعة الأولى، بيروت.
١٥. الصفدي، صلاح الدين (١٩٧٩): المختار من شعر ابن دانيال، تحقيق: محمد نايف الدليمي، مكتبة بسام بالموصل.
١٦. ضيف، د. شوقي (دون تاريخ): عصر الدول والامارات (قسم الشام)، المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.
١٧. الكتبي، محمد بن شاكر (١٩٧٣): فوات الوفيات، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
١٨. الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ)، (١٩٨٠): عيون التواريخ، تحقيق: د. فيصل السامر، نبيلة عبد المنعم، دار الرشيد للنشر، مطابع دار الحرية، بغداد.
١٩. مصطفى، ابراهيم، والزيات، أحمد حسن (دون تاريخ): المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، استانبول- تركيا.
٢٠. المغربي، عزيزة بشير أحمد (دون تاريخ): الشعر الاجتماعي في العصر المملوكي اتجاهاته وخواصه الفنية.
٢١. المقريزي، تقي الدين (ت ٨٤٥هـ)، (١٢٧٠هـ): المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، مطبعة بولاق.
٢٢. مؤسسة بداية جديدة لتأهيل المدمنين. https:\\m. facebook. Com. Posts.

References:

1. A new beginning for the rehabilitation of addicts: https:\\m.facebook.com.Posts
2. Abu Hafs, Omar bin Muzaffar bin Omar (749 AH), (without date): Ibn al-Wardi's Divan, without a place of printing.
3. Abu Zaid, Dr. Sami Yusuf (2012): Literature of the Successive Zanki, Ayyubid and Mamluk Countries, Dar Al-Masirah for Publishing, Distribution and Printing, First Edition.
4. Al-Baha Zuhair, (without date): Al-Diwan, investigation, Dr. Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, Muhammad Taher Al-Gilawi, Dar al-Maarif, first edition.
5. Al-Hanafi, Ibn Iyas Abu Al-Barakat Muhammad bin Ahmed Al-Masry (930 AH), (1311 AH): Badaa'i Al-Zuhur fi Waqi'at al-Zahoor, Bulaq, Egypt.
6. Al-Jamal, Ahmed Sadiq (1966): Colloquial Literature in Egypt during the Mamluk Era, National House for Printing and Publishing, Cairo.
7. Al-Ketbi, Muhammad bin Shakir (764 AH), (1980): Uyun Al-Tawarikh, edited by: Dr. Faisal Al-Samer, Nabila Abdel-Moneim, Dar Al-Rasheed for Publishing, Freedom House Press, Baghdad.
8. Al-Kitbi, Muhammad Bin Shaker (1973): The Fatality of Deaths, edited by: Dr. Ihssan Abbas, Dar Sader, Beirut.
9. Al-Maghribi, Aziza Bashir Ahmed (undated): Social poetry in the Mamluk era, its trends and artistic features.
10. Al-Safadi, Salah al-Din (1979): Al-Mukhtar from Ibn Daniel's poetry, edited by: Muhammad Nayef Al-Dulaimi, Bassam Library, Mosul.
11. Al-Tawenji, Dr. Muhammad (1993): Poetic Trends in the Levant during the Ottoman Era, Arab Writers Union Press, Damascus.
12. Guest, Dr. Shawky (without history): The era of the states and the Emirates (section of the Levant), Knowledge, Cairo, second edition.
13. Hashish - Wikipedia / The Free Encyclopedia: https:\\ar–m.Wikipedia-org.wiki.
14. Ibn Afif Al-Din, Shams Al-Din Muhammad (606 AH-688 AH), (1985): The Court of the Cheb Al-Zarif, edited by: Shakir Hadi Shukr, Arab Renaissance Library, The World of Books, first edition.
15. Ibn Al-Nahhas (1313 AH): Al-Diwan, Al-Ansiyah Press, Beirut.
16. Ibn Taghri Bardi, Jamal Al-Din (without date): The rising stars of the kings of Egypt and Cairo.
17. Mustafa, Ibrahim, and Al-Zayat, Ahmad Hasan (without history): Al-Waseet Dictionary, Islamic Library, Istanbul – Turkey.
18. Rashid, Dr. Nazim (n.d.): On the Literature of Late Periods, Publications of Bassam Library, Mosul – Iraq.
19. Shaker, Nevin Muhammad (without history): Irony in Mamluk Poetry (648-784 AH), Master Thesis.
20. Sheikh Amin, Dr. Bakri (1972): Reviews in Mamluk and Ottoman Poetry, Dar Al-Shorouk, First Edition, Beirut.
21. Taqi Al-Din, Ahmad Bin Ali, (without date): Relief of the Ummah by Uncovering the Sorrow, published by Ibn Al-Walid.